الفصل السادس عشر

الهيئة الاجتماعية

ثم اعترض سكوتهما صوت صبيٍّ صارخ من خارج : —

— اهلاً بغودارد ! متى رجعت ؟ سمعتُ رئيسي يقول انك ذاهب الى افغانستان . فهل ذلك صحيح ؟ اودُّ الذهاب معك

وكان هذا الصارخ تشارلس مدلتون شقيق كتي فلما دخل اجابهُ غودارد :

— ارجو ان يكون ما سمعتهُ صحيحاً . هل في عزمك الدخول في الخدمة العسكرية

— كلاَّ فانَّ والدتي تبكي كلما ذُكرت هذه الكلمة " العسكرية " على مسمعها . ويشقُّ عليَّ ان اسبب لها ما يبكيها . اين شقيقتي الرعناء . لا تحضر الاَّ عندما لا تمسُّ حاجة اليها . تنتُ بالامس اكلم السيدة دشتون وعندي انها جميلة جدًّا أليس كذلك ؟ اما توفَّقت بعد ات الحصول على زوج ؟ -

— ارفق بها يا تشارلس ولا تضيق عليها بهذا المقدار

— هكذا ينبغي وارى كثيرين يتحاملون عليها . انها امرأة يصعب إدراك دخيلة امرها اما انا فقد عرفتُ خلها وخمرها

قال هذا بمنتهى السذاجة والبساطة لانهُ كان حدثًا غير متجاوز سبعة عشر ربيعاً . فنادتهُ اختهُ من داخل غرفة البليار دو : —

— هلمَّ يا تشارلس الى مليكة قلبك

ثم نادت السيدة دشتون على مسمع اخيها قائلةً والضحك ملء فيها

— تعالي يا ملكة نيسان الى عزيز امير

فوثب تشارلس بحدة الغيظ وعدا وراء اخته وخرجا كلاهما خارج الغرفة فاستأنفت السيدة ارلنفورد كلامها مع غودارد قائلةً : —

— ما أحلى هذه الفتاة على رغم سلاطة لسانها وكثرة عبثها ومزاحها . حقًّا انهُ يشقُّ عليَّ فراقها

— أصحيح انها ستزفُّ الى دك سافيل

— نعم فأُعاني بعدها وحشة لا مزيد عليها لانها موضوع تسليتي في معظم همومي . وستكون حياتي بعدها مرَّة جدًّا

— مُرَّة ؟

— أعني — أعني — انهُ يصعب عليَّ الظفر بصديقة غيرها لاني قليلة المداخلة : —

وكان غودارد يرقبها في اثناء كلامها بعين التأمل والامعان فيرى لون وجهها يروح ويجيء وهي تجهد نفسها في إخفاء امرها وكتم ما تعاني من الألم الشديد فاعترض كلامها وقال : —

— يا الس ما المراد بهذا كلهِ ؟ انكِ لستِ كما كنتِ في سابق عهدكِ . فلقد كنا في زمن الحداثة صبيًّا وبنتًا وقضينا وقتًا طويلاً في صداقةٍ نقية طاهرة . وتلك الصداقة باقية فلا تستطيع الايام ان تمحو صورتها الجميلة وذكرها الحسن . ومحبتي لك تُعلن لي اكثر مما اسمعهُ عنكِ وقد لزمتُ جانب الصمت وقتًا كافيًا — اطول مما استطيع الاحتمال — ولا يخفى عليك انهُ بلغتني اخبار ملتبسة متضاربة ولم أُبالِ بها اعتمادًا على انكِ سوف تطلعينني على كل ما يهمني ان اعرفهُ عنكِ . فقولي لي ما هي همومك ؟

— همومي ؟ خلِّ عنك الانذار بالخطر

— هذا ليس بجواب : انظري يا الس اني منطلق الليلة ولعلي ابقى غائبًا اشهرًا . ومن الضروري ان اعرف كل شيء قبل سفري فليكن الكلام فيما بيننا الآن على ما يمكن من الوضوح والبيان ولا فائدة من تجاهلك واذ عائك عدم الاحاطة بما يقولهُ الناس عن ارلنفورد . نعم ان العالم ليس دائمًا — او غالبًا — مصيبًا ولكن ما الداعي الى وجود السيدة دشتون هنا ؟ ولِمَ تسمحين لها بالمجيء الى بيتكِ ؟

— انك تجهل جاك ارلنفورد ولذا تسألني هذا السؤال فهو يدعو اصدقاءهُ والسيدة دشتون واحدة منهم . فلنتكلم في موضع آخر

— لا لا بل انما نتكلم في هذا الشأن لاني اروم ان اسمع منكِ شيئًا عن تاريخ حياتكِ منذ زواجك . ففي كل رسائلك التي كتبتِها اليَّ تجنبتِ الخوض في هذا الموضوع ولم تشيري اليهِ بكلمة . وقد بلغني عنهُ شيء كثير من غيركِ واما منكِ فلم اسمع قط شيئًا . وأرى اني الرجل الوحيد الذي تسوغ لهُ نسبتهُ اليك أن يكلم زوجكِ

— اراك متهيجًا جدًّا فكيف تكلمهُ وانا لست متشكية من شيء . وما ذا يبعثك على اللجاج في خوض عباب هذا البحث المكدر . الا تراني راضية مقتنعة ؟

— لما كنتُ في كلكتا سمعتُ باقترانك فتعجبتُ كيف ان والدتك الشديدة التدين رضيت بارلنفورد زوجًا لك لأنَّ سيرة ماضيهِ لم تخفَ على احد ووددت لو كنت حينئذٍ في لندن . على انيَ رجعت بعد ذلك من سفري وزرتك فوجدتك سعيدة . واظنني كنتُ اذ ذاك غبيًّا جدًّا حتى قصرت نظري على الظواهر ولم اغص بعين الانتقاد الى اعماق قلب صديقتي القديمة

— هذا اذا كان لي قلبٌ

— حقًّا انكِ صبَّارة واحرص من أن تعلني شكواكِ . ولكن اعلي ياعزيزتي اني صديقٌ مخلص لكِ على الدوام . فثقي بي واتكلي عليَّ . اتكلي عليَّ الى النهاية

فعبث الاضطراب بشفتي السيدة ارلنفورد ثم وارت وجهها بين يدها وقالت : —

— حتى مَ هذا العذاب ياربي . فقد ظننت اني اقوى قلبًا واشدُّ تجلُّدًا

— اراني سببت لكِ البكاء فهل غفلتكِ بشيء ؟

— لا . لا . لستَ انتَ المسبب لست انت . آه لو تعلم كيف كانت حياتي

— اخبريني اذًا أخبريني . لعلكِ تظنين الامر اردأ مما هو في الواقع

— ليس الامر في معرض الظن فلا شيء اردأ من حياتي وامرُّ من عيشتي ولم يقدِّر الله لمخلوق شقاء نظير شقائي . ولكن رحماك ياغودارد رحماك ! إنسَ — ارجوك ان تنسى ما قلتهُ لك . لايرعك امري . ولقد كنتُ عازمةً على ان اكتمهُ ولا أُطلع احدًا على مصيبتي . وليس لي صبرٌ كانٍ يمكنني من عرضها على ما تتخلص بهِ غالبًا من كانت نظيري من النساء — محكمة الطلاق — لاني أرى الموت خيرًا من اطلاع الناس على قصتي

— وهل من يلومكِ اذا فعلتِ هذا ؟

— ربما انت لا تلومني لانك تعرفني وقد عرفتني حق المعرفة في ماضي حياتي لكنك لا تقدر ان تقول للعالم " هوذا فتاةٌ ربَّتها والدتها الصالحة على الادب والصلاح ونشَّأتها على نموذج الطهر والعفاف وأشربت قلبها الاخلاص والمحبة والطاعة لزوجها . وقد زُفَّت الى رجل خليع فاسد الاخلاق وهي واثقة كل الثقة بحسن نتيجة هذا الرباط المقدس حتى طفق ظل ثقتها يتقلَّص وأخذت آمالها تخيب واحدًا بعد الآخر اذ لم يكن لهذه الثقة رسم في قلب رجلها " واذا قلتَ هذا سألك العالم " ما هو جرم زوجها ؟ " وطلب اثبات جناية عليهِ تستوجب العقاب الناموسي كأنَّ وجودهُ وحدهُ لم يكن جناية كافيةً . فلعونة انتِ ايتها الهيئة الاجتماعية العالمية الكاذبة التي لا تهتم بسوى المقام فتضحي في سبيلهِ كل غالٍ عزيزٍ وتقبل في عضويتها كل من تشوقها صورتهُ الحاضرة مهما كان تاريخ ماضيهِ . ولا تتعدَّى في فحصها حدود الرُّتب والالقاب ! وكفى مثالاً بالسيدة د . وما انطوت عليهِ مما عميت عنهُ عيون اهل العالم المفتونة بالحسن الخارجي وما اقبحهُ من حسنٍ كاذب

— يامسكينة ! يامسكينة ! فماذا أقولُ لكِ وبمَ أُشير عليكِ ؟

— ليس من مشورة يمكنني قبولها — لاجل ولدي — ابنتي المسكينة الصغيرة التي اقلُّ

حراكٍ بأيديهِ يعود عليها بوخيم العاقبة . اذ لا استطيع ان اجرح الاب من غير ان اجرح الولد معهُ . فلاجلها احتمل . على انَّ مصيبتي توشك ان تشبَّ عن طوق الاحتمال . واذ قد اطلعتك على كل شيء فلا بأس من أن أطلعك على الضرب الاخير من ضروب الفجور القارب في بيتي اطنابهُ والرافع فوق زوجي قبابهُ . فمنذ بضعة ايام طلبتِ قلادتي الدرية فما وجدتها . وفي مساء ذلك اليوم كانت تلك المرأة (املي دشتون) التي استعدت للذهاب معنا الى الملعب واقفة امام المرآة ولما ابصرتني داخلةً اسرعت الى نزع شيء من عنقها وهو قلادتي المذكورة

— اتظنينها سرقتها ؟ — كلاَّ بل هو اعطاها اياها

— مهما يكن من خلاعتهِ وسقوط شأنهِ فلا اظنهُ يبلغ هذا الحدَّ من امتهانك

وقد بعثهما هذه الحادثة على هياج وانفعال وحدة أخذت منهما كلَّ مأخذ فلم يشعرا بالسيدة دشتون التي عند دخولها عليهما حملتها عادة امثالها على نشر اذنيها لاستراق السمع فتقهقرت الى ما وراء الستار وجلست تصغي الى حديثهما فاحاطت علمًا بهِ من أولهِ الى آخرهِ : ثم استطردت السيدة ارلنفورد كلامها فقالت : —

— ان امتهاني منهُ يزداد الف ضعفٍ كلما تكلمتُ عنهُ . ولا اعلم كيف استطعت الصبر على وجود هذه المرأة في بيتي . او تزعم اني لشدة تجلدي لا اشعر بما يديهِ النساء والرجال حولي من التهكم والازدراء ولو على سبيل التلميح والاشارة من طرفٍ خفيٍّ ؟ ذلك كلهُ صبرتُ عليهِ الى الآن . ولكن انت النهاية واذا صحَّ ظني من جهة القلادة —

— نعم . نعم . فكثيرًا ما يعرض للانسان محركٌ فجائي يخرج جيادهُ الطويل من دائرة القوة الى حيز الفعل . فمتى عرض لكِ شيء من هذا فلا تتأخري عن أن تخبريني بهِ . اذ ليس من شيء يحول دون تضحيتي كل عزيز في سبيل راحتكِ

وفي تلك اللحظة جاءت كتي مدلتن راكضة في وسط غرفة البلياردو واحاطة بمنكبي املي دشتون صارخة "بوه" فأجفلت هذه مرتعدة . وفيما هما داخلتان الى حيث كانت السيدة ارلنفورد وغودارد قالت كتي موردة الجد في معرض الهزل : —

— ان السيدة دشتون كانت تخطف حديثكما من وراء الستار ؟ فاجابتها السيدة ارلنفورد : —

— ما هذا الكلام يا كتي ؟ اليك عن هذا المزاح وارجو ان السيدة دشتون تغفر لك هذه التهمة الباطلة

— لا بدَّ انها تسامحني وعندي لقاء ذلك قصة شائقة اقصها عليها . فتعالي ايها السيدة املي تعالي هوذا الرجال داخلون

الفصل السابع عشر

لبس القلادة

ثم خرجنا كلتاهما ودخل اللورد ارلنفورد والماجور كرتر اخو املي دشتون والمستر سنسناتوس بركز وهم بين ضحك ومسامرة فقال اللورد ارلنفورد :—

— اهلاً بفودارد . لقد ساءني طول انتظارك لنا

ثم قضى واجب التعارف بينهُ وبين الماجور كرتر ولمستر بركز وعاد الى مخاطبتهِ فقال : —

— يود المستر بركز ان يطارحك عن برلين بعض أسئلةٍ لم اقدر ان اجيبهُ عليها . اما انت فقادر . انهُ مغرم جدًّا بالوقوف على شؤون اوروبا وقد قلتُ لهُ انك الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يجيب سؤلهُ من هذا القبيل

— بكل سرور . اظنني اعرف لك اخًا ايها المستر بركز كان مصوِّرًا في ليبسك واسمهُ هوراس فيما اظن . الست مصيباً ؟

— بلى . وكثيرًا ما حدثني عنك . وقد أعجبني كتاب تعرفٍ بك . ولكن غيابك عن لندن حان دون انتفاعي بهِ

— لا استطيع الآن ان اعرض نفسي للقيام بخدمتك لاني لسوء الحظ مضطرٌ ان ابرح لندن هذه الليلة لداعٍ مهم جدًّا . وارجو اني اعود بعد اسبوعين . اما الآن فتعالَ اطلعني على ما ترومِ الوقوف عليهِ

— شكرًا لمعروفك . سافعل هذا

ثم عرض لهُ ما شغلهُ قليلاً بمحادثة السيدة التي فالتفت زوجها اللورد ارلنفورد الى غودارد وقال :—

— علمت انك مسافر هذه الليلة . فماذا عسى ان تكون نهاية هذه الاحوال الطارئة الشاغلة نظارة الخارجية والمتوجهة اليها افكار الناس عمومًا ؟ اخبرتني السيدة دشتون انك تعرفها منذ ما كانت في الهند

— نعم والسواد الاعظم ممن هم نظيرنا قادرون ان يدعوا هذا الشرف ولم يدر في خلدي اني اجتمع بها هنا — في بيت وجدتها فيهِ بمقام ربتهِ

وقد نطق بهذه الكلمات بمزيد الحنق والشدة . ثم اعرض عنهُ واخذ يحادث تشارلس مدلتون الذي كان قد دخل مع المستر بركز . اما ارلنفورد فتأثرهُ بنظرهِ وقال هامسًا :

— سوف اجزيك على هذا الكلام ايها الجرو

واذ ذاك دخلت السيدة دشتون ومن نظرها في وجه ارلنفورد وملاحظتها حركة شفتيه ادركت كنه ما نطق به فدنت منهُ ولوائح التزغ بادية على وجهها وقالت : —

— بج . بج ! انتهرك حبيب زوجتك ايها الساقط . حقًا ان حب غودارد لالس يفوق الوصف اليس كذلك ؟

خلي الآن عنك هذا التشفي وقولي لي ماذا اجابك سكولوف ؟ هل يستطيع ان يعطينا المبلغ المطلوب ؟ — نعم

— ما ذا يريد مقابل ذلك ؟ — اكثر مما اقدر ان افعل

— صه ! لابدَّ من ان تفعلي ما يريد . لانَّ حاجتي الى المال تفوق الوصف

— يريد أن يعاق غودارد عن السفر هذه الليلة فما رأيك

— وهل هذا ممكنٌ

— عندي وسيلة لذلك بشرط أن توافقني عليها

— إن ! بشرط ! تقولين هذا وانتِ عالمة بشدة احتياجي الى المال والاَّ —

— اذًا دعني البس القلادة فانها معي

— القلادة ؟ لماذا ؟ كيف ؟ لا — ليس هذا

— اذا تولَّ انت سدَّ خرقك

— مهلاً يا املي لا تغتاظي

— وانت تعقَّل ولا تكن غبيًّا

— سأجيبكِ بعد عشر دقائق

ثم خرج الى غرفة البلياردو . اما هي فقالت في نفسها : —

— لقد حان وقت التشفي والانتقام . وانتِ يا ألس ماذا قلتِ ؟ قلت ان صبركِ يفرغ اذا تحقَّق ظنك من جهة القلادة فلسوف ترى . وانت ايها القائد غودارد ستغتنم فرصة القيام بوعدك لها

ثم نهضت من مكانها وجاءت الى حيث كان الباقون جالسين قرب النار وكانت كتي آخذة في سرد ما سمعتهُ من السيدة دشتون عن الشيطانة الجميلة فقالت :

— من يعرف هذه المرأة العجيبة ؟

فاجاب الماجور كرتر : — كنا نعرفها بالسماع نظرًا لاتساع نطاق شهرتها . فقال المستر

بركز: — كلكم ما عداني

فاجابهُ كرتر: — لم اتوقع اني أجد من لم يسمع بها بعد. وحقًّا ان تاريخ اعمالها يؤلف كتاب "الف ليلة وليلة" آخر. ومن العجب انها باقية مجهولة عندك. فليس من امرأة ذائعة الشهرة نظيرها.

— هل نظرتها؟

— كلاَّ. واظنها لا تقبل من يأتيها لمجرد الزيارة العادية فهي دائمًا مشغولة بالمسائل السياسية وقلما تخطى محلها

فقالت املي دشتون: — لكن اكثر الاخبار المروية عنها غير صحيحة لاني اعرفها حق المعرفة. فليس لها شبيه في المشاشة الى اصطناع المعروف وفعل الخير حتى انها اصبحت ملاذ كل من عضهُ الفقر واخنى عليهِ الدهر.

وفيما هي تتكلم دخل ارلنفورد يصحبهُ البرنس سكولوف فجلسا منفردين في ناحية من تلك الغرفة الفسيحة واستأنف المستر بركز كلامهُ فقال: —

— لا بد ان تكون غنية جدًّا حتى يمكنها ان تعيش على هذا الاسلوب

فقالت السيدة دشتون: — انها لكذلك. لكننا بهذا الحديث نزعج السيدة ارلنفورد. اظنك لا تهتمين بسيرة من تلك أخبارهم تسمع نظير الشيطانة الجميلة

— نعم ولا سيما اذا كانوا غير مشهود لهم بحسن الصيت

فقالت املي: — ما رأيك ايها القائد غودارد في الشيطانة الجميلة؟

— ان شعوري نحوها يتنازعهُ الحنو والحزن لانها امرأة والمرأة التي تقدم على مصادمة العالم لا بد ان تكون اخيرًا هي الخاسرة.

فقال البرنس سكولوف بعد ما عرفتهُ السيدة ارلنفورد بالقائد غودارد: — وازيد على كلامك ايها القائد ان اشياء كثيرة قيلت عنها وكتبت بشأنها. فهي قاسية جدًّا في بغضها قدر ما هي لينة في حنوها ومحبتها. فحياتها حياة انتقام — انتقام نشأ عن خطإٍ ارتكبتهُ

فسأل بركز: — وما هو اسمها الحقيقي؟

فاجاب كرتر: — لا احد يعرف

فاعترضت املي قائلة: — او بالحري ليس من يعرف ويقول

فقال سكولوف: — من عادتها ان لا تطلع احدًا على ماترمم اعلانهُ او كتمهُ

ثم التفت الى غودارد وقال: — قد جئت الان من عند الدوك حيث سمعت عن امكان

ترفيتك بواسطة الجنرال سافيل فاقبل تهنئتي مقدماً .

— بمزيد الشكر والثناء

— هل لك ان تزورني غداً ؟ — اني بالرج لندن الليلة

— زوري اذاً بعد رجوعك هنا او في برلين حيث اكون بعد اسبوع فاعرفك بالشيطانة الجميلة

وعاد غودارد للاشتراك في محادثة الآخرين فاتبعهُ سكولوف نظرهُ وقال في نفسهِ :— ظنك لا يسافر

ثم اخرج رسالة برقية من جيبهِ وقرأ فيها ما يأتي :— "ان الرسائل التي يحملها غودارد تتضمن القرارات الاخيرة فمقابلتها ضرورية جداً . والتفصيل مع رسول خصوصي."

فقال :— حقاً ان الحياة مجهولة فما اصدق القول " ما مضى فات والمؤمل غيب " فهذا القائد يظنُّ انهُ يسافر هذه الليلة وانا اتوقع عاقتهُ عن السفر . فمن منّا يكون مصيباً ؟ لا اعلم .

ثم جلس بجانب مائدة صغيرة اخذ عنها مجموع صور وشرع يلهي نفسهُ في الاطلاع عليها .

واذا بتشارلس مدلتون نادى املي دشتون التي كانت مشغولة بمحادثة ارلنفورد قائلاً

— وعدتني انك تلعبين امامي لعبة في البلياردو فتعالي الآن بينما الباقون مشغولون عنك وانجزي وعدك لي فنزيل الكدر بضرب الأكو

فنهضت وسألت ارلنفورد :— اتسمح لي بالذهاب مع هذا الصبي ؟

فقال "طوباهُ ياليتني اياهُ طوباهُ" ثم قبض يدها وضغطها . فلم يفت عملهُ هذا نظر امرأته وكانت اذ ذاك ملتفتة نحوهُ . ولاحظ غودارد سرعة تغيُّر لونها فتبع جهة نظرها فادرك السبب . اما ارلنفورد فسار الى حيث كان سكولوف وقال لهُ :—

— هل استهجنت فعلي ايها البرنس — كلاَّ البتة

وحينئذٍ انقطع ارلنفورد للتأمل في طلب املي من جهة لبس القلادة فقال في نفسهِ :— ماذا عسى ان تريد بلبسها ؟ أمرادها ان غودارد يراها ويضطر ان يتعرَّض لمقاومة وقاحتها هذه فيفعل ما يسبب لهُ التأخر عن السفر ؟ اظنها مصيبة في رأيها حسب عادتها . وسوف نرى سوف نرى

فقالت لهُ لغودارد :— سأترك بعد سفرك ارحمة هذه الضاربة

بيت اصبري ولا تقطعي تظاهري بعدم الاكتراث والاهتمام وهذا اعظم ثأر واشد انتقام

فنهضت كتي مدلتون وقالت :— تعالوا معي وانظروا . اني ذاهبة لأحول دون لعبهما . وسأريكم كيف تعلم السيدة دشتون اختي تشارلس لعب البلياردو . انها لعبة حسنة ؟ اصغوا فما من صوت لضرب الاكر ؟

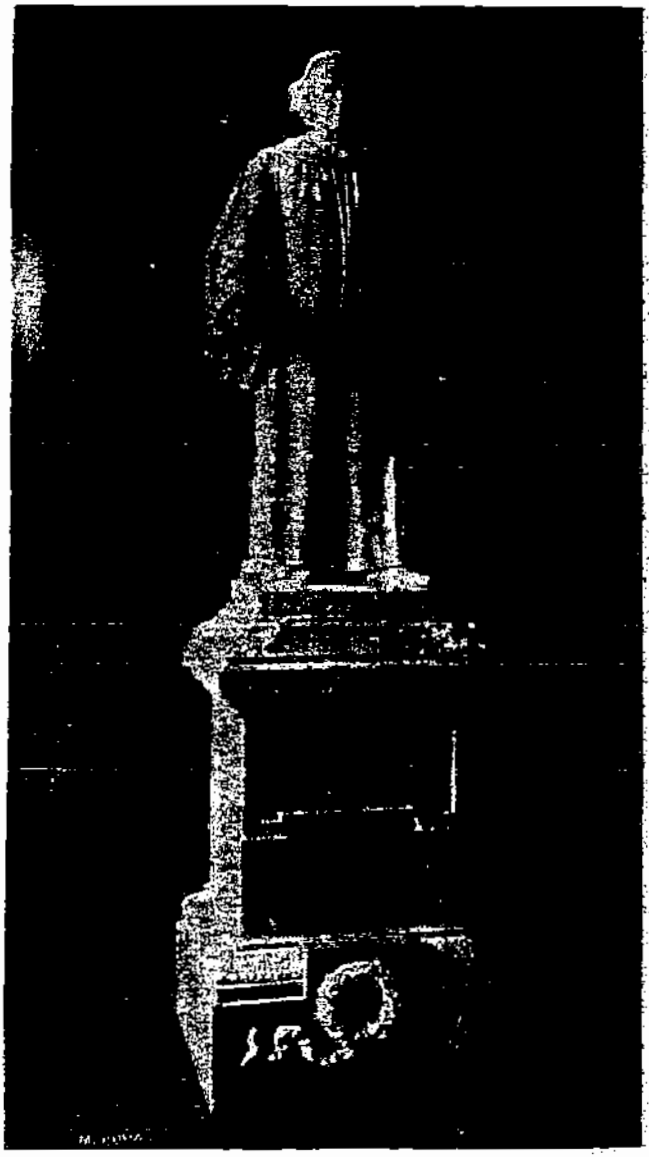

تمثال الدكتور دانيال بلس